التَّفَوُّقُ أو التَّميّزُ العِرْقِيُّ: كَيْفَ فَنَّدَ القُرْآنُ مَقُولَةَ الشَّعبِ المُخْتَارِ

◆ رامي مرتضى[1]

■ خلاصة

تُعـدّ فكـرة الاختيار الإلهي أكثر الأفكار تأثيراً في تشـكيل الهويَّـة الدينيَّة والقوميَّة عند اليهود، وقـد تحوَّلت في أدبيَّاتهم وممارسـاتهم من معنى الاصطفاء التكليفي والرسـالي إلى معنـى الامتياز العرقي والنجاة الأخرويَّة المضمونـة. فجاء القرآن الكريم ليتصدَّى إلى تصحيـح هذا المفهوم من خلال الإقرار بوقائع تاريخيَّة من النِّعم والاصطفاء المؤقَّت لبني إسرائيل، لكنَّه في الوقت نفسه ينقض تحويلها إلى حق حصري في القرب من الله والنجاة الأخرويَّة. وسـوف تتناول هذه الدراسـة الموقف القرآني من تلك الدعوى التي عمل كثير من اليهود على ترويجها وتسـويقها عبر التاريخ، وهي أنَّهم يتمتَّعون باختيار إلهي حصري يقتضي تفوُّقًا دائمًا ونجاةً مضمونةً بسـبب النسـب والانتماء فحسـب، وتبيّن الدراسـة أن القرآن الكريم يفكّك هذه المقولة عبر منهج متكامل.

الكلمات المفتاحية: بنو إسرائيل، شعب الله المختار، اليهود، التميّز العرقي.

١ - طالب حوزوي من لبنان.

Racial Superiority or Exceptionalism
How the Qur'an Refutes the Chosen People Concept

◆ **Rami Murtada**
Lebanese seminary [Hawza] Student.

■ Abstract

he concept of divine selection is one of the most influential ideas in shaping Jewish religious and national identity. In their literature and practices, it has shifted from a sense of divinely ordained and divinely ordained selection to one of racial privilege and guaranteed salvation in the afterlife. The Holy Qur'an addresses this misconception by acknowledging historical instances of divine favor and temporary selection granted to the Children of Israel, while simultaneously refuting the transformation of these into an exclusive right to closeness to God and salvation in the afterlife. This study will examine the Quranic stance on this claim, which many Jews have promoted and marketed throughout history, that they enjoy exclusive divine selection, necessitating perpetual superiority and guaranteed salvation solely based on lineage and affiliation. The study will demonstrate that the Holy Qur'an dismantles this claim through a comprehensive methodology.

Keywords:

Children of Israel, Chosen People, Jews, Racial Exceptionalism.

مقدّمة

إنَّ مقولة اليهود شعب الله المختار بقدر ما يحرص اللَّاهوت الرسمي اليهودي على التملّص منها بقدر ما هي لصيقة به، بيد أننا نلفي هذا التملّص له أسبابه الحادية إلى تبنّيه، وذاك الالتصاق له أيضًا أسبابه المسوّغة للحكم به، لكن برويَّة ومن غير تعميم.

أما التملّص، فيمكن أن يفهم على أنَّه موقف طبيعي معتاد تمارسه مؤسَّسة دينيَّة تجاه نصوص أو ثوابت مقدَّسة أصبحت في لحظة تاريخيَّة تموضع أتباعها والمنضوين تحت لوائها في موضع الريب التهمة وتوقّعهم في الحرج أمام الرأي العام، وذلك في وقت تجد هذه المؤسَّسة نفسها عاجزة عن غمر تلك الثوابت أو تحييدها فضلاً عن ردِّها أو الانسحاب منها؛ فتلوذ بتأويلها والانعطاف بها نحو إنتاجات وتوليدات جديدة لمعانٍ ومدلولات مباينة لتلك التي كان مصرَّحًا بها من قبل، بل ومصدوحًا بها ومشيَّدًا عليها ومراكمًا فوقها مفاهيم وأنساق فكريَّة وثقافيَّة وحقوقيَّة و.. وقضايا كبرى قُدِّمت على أنَّها حقائق مطلقة غير قابلة للنقاش على امتداد سنين بل قرون. ثمَّ تزداد هذه التبريرات التأويليَّة إلحاحًا ويصبح الموقف أشدّ حرجًا عندما يتجاوز حدود اللَّاهوت إلى تسويغ مشروع قومي وطني علماني جاهز ناجز يتوخّى المقبوليَّة لدى منظومات وأنساق القيم المعاصرة، ولا يقنع بإقناعها، بل يتصدر طلائعها ويتطلع إلى مكانه المناسب بينها.

وأما الالتصاق، فهو ــ وإن كان بديهيًّا ــ لكنَّه بيت القصيد، والبعد الذي سيشغلنا في هذه المقالة الذي سيضعنا أمام مشكلة ميدانيَّة واقعيَّة تولِّد الإشكاليَّة التي ستعنى هذه المقالة

بمعالجتها. وهذه المشكلة تتمثَّل في السؤال الآتي:

بماذا امتازت الأقلّيَّات اليهوديَّة المشتَّتة في أرجاء المعمورة حتى كانت وما زالت مالئة الدنيا وشاغلة الناس دون غيرها من الأقلّيات الدينيَّة أو الاثنيَّة أو...؟ والجواب ــ على نحو الإجمال ــ أنَّ الأقلِّيَّات اليهوديَّة تميَّزت عن غيرها بخاصَّتين مثيرتين للاهتمام:

١. الوعي اليهودي بالتفوّق الاثني أو العنصري (شعب الله المختار) الذي انعكس دائمًا على سلوكيَّاتهم وممارساتهم بشكل سلبي تجاه المحيط الذي يحتويهم ويعيشون فيه، وأسهم إلى حدّ بعيد في عزلهم وانكفائهم على أنفسهم، وتقوقعهم داخل إطار بيئات مغلقة (مع تفاوت في نسبة هذا الانغلاق بين جماعة وأخرى حسب ظروف الزمان والمكان)، والأدهى من ذلك أنَّ هذا الوعي بالتفوُّق جعل اليهود بمعزل تام عن محيطهم، وعدم اكتراث بمشاركة محيطهم همومَه الكبرى وتحدّياته وتطلّعاته التي ربما تعود بالنفع عليه وعليهم، وتخفّف من حدّة التوتّر مع الأكثريات المحيطة بهم، بل ربما تآمروا أحيانًا على تلك الأكثريات الحاضنة ووقفوا إلى جانب أعدائها. فاليهود لم يكونوا ــ كسائر الأقلِّيَّات ــ يحذّرون من المحيط بالمقدار الذي يحفظ هويَّاتهم الوجوديَّة، بل تجاوزوه أحيانًا إلى اللاَّ مبالاة بهذا المحيط إلا بالمقدار الذي يخدم منافعهم الذاتيَّة الآنيَّة.

٢. الوعي اليهودي بالمؤامرة وضرورة التخطيط؛ فقد استمرّ الشتات اليهودي سنوات طويلة بل قرونًا مديدة، ولكنَّه مع ذلك لم تنشأ أو تتأسَّس علاقة وطيدة ومستديمة مع ظرفه الجغرافي الذي نشأ وترعرع فيه مدّة من الزمن، لم يكن للشتات ثمَّة أرض ما أو بلد ما هو موطن للآباء والأجداد جدير بأن تُبذل دونه المهج، ويضحّى لأجله بالغالي والنفيس، كما هو الحال عند الأقلّيَّات الأخرى ــ كالنصارى مع الثورة العربيَّة في مطلع القرن الماضي ــ بل كانوا يعون على الدوام أنَّ تواجدهم في الشتات ــ قصر أم طال ــ وجود مرحلي مؤقّت، وأنَّ عليهم التربّص والصبر، أو

السعي والمثابرة للعودة إلى أرض الميعاد (وطنهم الأصلي الذي اختاره الله لهم)، الأمر الذي لفت انتباه الأكثريات الحاضنة، فأثار عندها الريب والحذر، ودفعها أحيانًا إلى ممارسة القمع والتنكيل.

هذه المشكلة الميدانيَّة ستثير لدينا إشكاليَّات أو تساؤلات نظريَّة كثيرة جديرة بالمعالجة، ونحن هنا بصدد تناول واحدة منها، وهي: كيف يفنِّد القرآن الكريم زعم اليهود بأنَّهم شعب الله المختار؟ والإجابة عن هذه السؤال تتكفَّل بها تباعًا محاور هذه المقالة.

أوَّلًا: مفهوم الاصطفاء في القرآن بين الابتلاء والتكليف أو الامتياز العرقي

يحتلّ مفهوم الاصطفاء مساحة واسعة في الخطاب الديني اليهودي بوصفه سندًا لفكرة الشعب المختار، وقد انتقلت هذه الفكرة ـ بصيغٍ متعدّدة ـ إلى الوعي العام حتى لدى غير اليهود، فأصبحت تُفهَم على أنَّها امتياز ثابت قائم على النسب، أو مزية أبديَّة تمنح جماعةً بعينها مكانة متعاليَّة على المساءلة. لكنَّ القرآن الكريم يعالج هذا المفهوم بمنهجٍ مختلف تمامًا؛ فهو من جهة لا ينفي وقوع الاصطفاء في تاريخ الوحي، لكنَّه من جهة أخرى يعيد ضبط دلالته ويحول دون تحوّله إلى عصبيَّة مقدّسة؛ فـ الاصطفاء في القرآن ليس منحةً عِرقيَّة ولا عقدَ امتيازٍ وراثيًّا، بل هو ـ في جوهره وصميمه ـ اختيارٌ مرتبط بالعهد والوظيفة، تُلازمه المسؤوليَّة ويصحبه الابتلاء، ويُقاس أثرُه بما يترتّب عليه من إيمانٍ وتقوى وعدلٍ وقيامٍ بحق الله وحقوق الناس.

ومن هنا تأتي أهمِّيَّة هذا المحور؛ حيث يضع بين أيدينا الأساس القرآني الذي يُفهم على ضوئه كلُّ حديثٍ لاحق عن نقض الامتياز الديني الموروث وسنن الاستبدال؛ فنحن هنا أمام مصطلحٍ قرآني تجب قراءته داخل منظومة القرآن القيميَّة والتشريعيَّة، لا داخل منظومات قوميَّة مغلقة، وإلا لانقلب هذا المصطلح من تكليف إلى تشريفٍ معطّل، ومن وظيفة إلى هويَّة متعالية.[1]

١ - انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة آل عمران، آية ٣٣.

١-الاصطفاء في القرآن اختيارٌ لوظيفةٍ رساليَّة لا تفوّقٌ بالنَّسب

يقرّر القرآن الكريم أنَّ الله -سبحانه- قد يصطفي من خلقه من يحمّله أمانة الهداية والرسالة، أو من يكون ضمن سلسلةٍ مباركة في تاريخ الوحي، لكنَّه لا يقدّم هذا الاصطفاء بوصفه مزية عِرقيَّة أو حقًّا موروثًا يرتّب النجاة بمجرد الانتساب؛ يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٣]. والآية هنا في سياق حديثٍ عن تاريخ النبوة وامتداد الرسالة، أي في سياق حديث عن سلسلة إيمانيَّة، لا في سياق مفاخرة قوميَّة؛ فذكرُ آل إبراهيم وآل عمران هنا يُفهم على أنَّه امتدادٌ لبيت النبوَّة والاصطفاء الرسالي، لا إعلانٌ لتفوّقٍ عرقي.

وهذا المعنى يزداد وضوحًا وجلاء إذا نظرنا إلى القاعدة القرآنيَّة التي تمنع من جعل النسب معيارًا للمنزلة عند الله؛ فالقرآن الكريم يكرّر في مواضع مختلفة، ويشدّد على أنَّ القرابة لا تنفع صاحبها عندما يغيب الإيمان أو تفقَد الاستقامة، وأنَّ علاقة الإنسان بالله -جلَّ وعلا- تقوم على العهد والطاعة لا على مجرّد الانتماء الاسمي، وكذلك عندما يتطرّق الذكر الحكيم إلى الحديث عن قصص الأنبياء، نجد أنَّ البيوتات النبويَّة نفسها ليست معصومة من النقد لمجرّد قربها من شخص النبي؛ فالمعيار الحاضر دائمًا في التوجيه القرآني وفي التربية القرآنيَّة هو المعيار الخُلُقي الإيماني؛ فالقرآن الكريم لا يسمح بتحويل الصلة بالنبوَّة إلى نسبٍ مُحتكَر يضمن الخلاص دون عمل.[1]

ومن هنا، نقف على آية هي من أصرح الآيات في ضبط مفهوم الاصطفاء وتقييده بالشرط الخُلُقي، وهي الآية التي تتطرّق لامتحان إبراهيم عليه السلام واستحقاقه الإمامة على أساس هذا الامتحان، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤]. فهذه الآية ـ كما نرى ـ لا تصدّ فقط عن الفهم العرقي للاصطفاء، بل تقرّر قاعدة منهجيَّة مفادها أنّ المقامات

١ - انظر: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التنوير والتحرير، تفسير سورة آل عمران، الآية٣٣.

الدينيَّة الكبرى (كالإمامة بمعنى الرئاسة الدينيَّة التي يقتدى بها) مرتبطةٌ بـ عهد من الله، وهذا العهد لا ينالُه الظالمون حتى لو كانوا من ذريَّة نبيٍّ عظيم هو شيخ الأنبياء؛ فالارتباط النسبي بشخص نبيٍّ من الأنبياء لا يكون ذا قيمة إذا ما حلَّ الظلم محلَّ العدل؛ ثمَّ إذا كان هذا في مقامٍ رفيعٍ متصلٍ بنبي الله إبراهيم (عليه السلام)، فهو أولى بأن ينطبق على من هم دونه من الأنبياء مكانة وفضلاً؛ فلا اختيار إذن في القرآن بمعزلٍ عن التحلّي بالفضائل، ولا اصطفاء بلا شرط، ولا عهد يُتوارث بصلة الدم.[1]

ومن هنا، يتبيّن كيف أنَّ الاصطفاء ـ بحسب المفهوم القرآني ـ ليس إعلان تفوّق، بل تكليفًا بوظائف؛ كالتبليغ عن الله، وحفظ العهد، وإقامة القسط، وتحمّل الكتاب، وهذه الوظائف إذا ما أُدّيت كان الاصطفاء نعمة مزدوجة: نعمة هداية من جهة، ونعمة قيامٍ بالواجب من جهة أخرى. أمَّا إذا ما ضُيّعت، فإنَّ الاصطفاء يتحوَّل إلى حجّةٍ بل نقمة على صاحبه لا لصالحه.

٢-الاصطفاء والعهد والابتلاء: سُنّة القرآن في الاختيار أنّه اختبارٌ ومساءلة

حين يتطرَّق القرآن الكريم إلى مفهوم الاصطفاء لا يتناوله بمعزل عن مفاهيم أشمل وأوسع منه، كـ الابتلاء والميثاق والمحاسبة؛ فليس في القرآن شيء اسمه امتياز ثابت خارج امتحان التاريخ وأخلاق البشر؛ ولهذا السبب قدّمت آية البقرة مفهوم الابتلاء على مفهوم الجعل: ﴿**ابْتَلَىٰ**﴾... ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾... ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ**﴾؛ فكأن الاصطفاء هنا جاء نتيجة لنجاحٍ في الامتحان، لا بداية امتيازٍ بلا ثمن.

وفي سياق الحديث عن بني إسرائيل ـ وهو السياق الأكثر اتصالاً بمقولة الشعب المختار ـ يقدّم القرآن الكريم صورة واضحة عن العهد المشروط؛ فيبيّن أنَّ الله أخذ ميثاقهم، وقرن معيّته لهم بالتزامهم أوامر محدّدة: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي**

١ - انظر: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تفسير سورة البقرة، الآية١٢٤.

مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٢]؛ فمن الواضح أنَّ المعيَّة هنا ليست ملكيَّة قوميَّة ولا ضمانة أبديَّة، بل وعدًا مشروطًا بمضمونٍ إيماني عملي.

ثم تأتي الآية التالية لتكشف جانبًا آخر من الموقف القرآني إزاء هذه القضيَّة، وهو أنَّ نقض الميثاق يُسقط آثار القرب ويترتّب عليه الجزاء ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ**﴾ [المائدة: ١٣].

إنّ هذا التسلسل من ميثاق مشروط إلى نقض، ثمَّ جزاء ينسف فكرة الامتياز الموروث من أصلها؛ لأنَّ الامتياز الموروث ـ لو كان مفهومًا سليمًا ـ لا ينبغي أن يتغيَّر بالنقض ولا أن يزول بالظلم، لكن الحال أنَّنا نرى القرآن يقرّر: أنَّ الظلم والنقض يبدّلان الحال ويستجلبان العقوبة.[1]

ومن الأهمّيَّة بمكان أن نعرف أنَّ القرآن الكريم لا يعرض هذا الميثاق بوصفه قصَّة تاريخيَّة محضة، بل سُنّة تُقرأ في كل جماعةٍ تُحمَّل كتابًا، وتُلقى على عاتقها مسؤوليَّة دينيَّة؛ فالقرب من الله في منطق القرآن ليس لقبًا وراثيًّا، بل مقامًا يتجدّد بالطاعة ويزول بالمعصية؛ ولذلك كان التذكير بالميثاق مقرونًا دائمًا بالمحاسبة، وكأنَّ القرآن يقطع الطريق على من يروم تحويل الدين إلى هويَّة مغلقة تقول: نحن على حقٍّ مهما فعلنا.

وتتجلَّى سنّة الابتلاء كذلك في أن الاصطفاء يزيد صاحبه مسؤوليَّة؛ لأنَّ الحجَّة عليه تكون أبلغ وأتمّ؛ فالتكريم بالوحي والكتاب والنعمة لا يعني البتَّة الإفلات من سنن الجزاء، بل قد يؤدّي ذلك ـ إذا ضُيّعت النعمة ـ إلى تغليظ العقوبة ومضاعفتها من جهة أنَّ النعمة قامت مقام البيان، وأنَّ الحجَّة أكملت ونجّزت لكن بشرط المحاسبة. ومن هنا نفهم لماذا يكثر في القرآن الكريم تعداد النِّعم في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ثم تعقيبها بالتوبيخ أو التحذير؛ وذلك لأنَّ النعمة ليست وسامًا بل أمانة.

١ - انظر: محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، تفسير سورة المائدة، آية: ١٢ ـ ١٣.

٣-تفكيك الخلط بين الاصطفاء والعصمة والنجاة الحصريَّة.. ومعيار الكرامة في القرآن

إذا كان الاصطفاء في القرآن الكريم اختيارًا وظيفيًّا مشروطًا بالعهد وملازمًا للابتلاء، فيجب علينا أن نفكّك بين ثلاثة مفاهيم شائعة ومتداخلة أسهمت في إنتاج فكرة الشعب المختار على غير هدي القرآن:

أ- خلط الاصطفاء بالعصمة

العصمة في المفهوم الإسلامي مقصورة على الأنبياء ﷺ في عمليَّة تبليغ الوحي وما يتصل بها من وظائف ومسؤوليَّات، وكذلك من يقوم مقام الأنبياء في تأدية هذا الدور، أعني الأوصياء، ولا تمتدّ العصمة إلى أُمَّة ما أو قومٍ ما لتجعلهم فوق ممارسة النقد. أمَّا الاصطفاء في القرآن الكريم، فهو وإن كان قد يتعلّق بجماعةٍ ما في سياق تاريخي بعينه، لكنَّه لا يعني ـ إذا قصرنا النظر على المفهوم ذاته ـ السلامة التلقائيَّة والتسديد الإلهي لسلوك الجماعة المصطفاة، والآيات القرآنيَّة مليئة بالحديث عن الأخطاء والانحرافات التي وقعت فيها بعض تلك الجماعات المصطفاة والتحذير منها. ومن ثمَّ، إنَّ فهم الاصطفاء على أنَّه تقديس للجماعة هو فهم متصادم مباشرة مع روح القرآن الكريم في عرض التاريخ الديني، ذلك العرض الذي لا يجمد على حدّ السرد بل يتعداه دائمًا إلى التدبّر والاعتبار.

ب- خلط الاصطفاء بالنجاة التلقائيَّة.

يقرّر القرآن الكريم أنّ النجاة ليست بالتسميات ولا بالأماني ولا بالانتساب، وإنَّما بالإيمان والعمل والبرهان؛ وفي سياق الردّ على دعاوى احتكار المؤمِّن الأخروي جاء النص القرآني صريحًا ليقول: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١]؛ حيث يظهر لنا جليًّا كيف ينقلنا القرآن من الادِّعاء إلى البرهان، ومن الهويَّة إلى الحجَّة، ومن الأماني إلى المعياريَّة. وهذا التأسيس على غاية من الأهميَّة في مقامنا؛ لأنَّه يبيّن لنا بشكل واضح وصريح أنَّ القرآن الكريم يتعامل مع

دعوى الامتياز الموروث على أنَّها مجرَّد أمنيات لا تستند إلى دليل أو حجَّة، ثم يضع لذلك معيارًا موضوعيًّا.

ج- خلط الاصطفاء بمعيار الكرامة الإنسانيَّة.

يقدِّم لنا القرآن الكريم معيارًا موضوعيًّا جامعًا يتكفّل بالإجهاز على كلّ نزعة عنصريَّة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذه الآية الكريمة ليست مجرَّد خطاب اجتماعي ذي طابع توصيفي، بل هي ميزانٌ عقدي يطيح بأي ادعاء لكرامة ثابتة مطلقة متعالية قائمة على صلة الدم أو العرق؛ فالمدار عند الله هو التقوى، والتقوى معيارٌ متجدّد، لا يُورّث ولا يُحتكر؛ فبهذا ينسف القرآن الكريم من الجذور فكرة أنَّ جماعة ما أكرم عند الله بذاتها وبعرقها.[١]

ويُضاف إلى ذلك أنَّ القرآن الكريم يقدّم نقدًا حادًّا لفكرة الاكتفاء بحمل الكتاب دون العمل به في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالاتصال بكتابٍ أو الانتساب إلى تاريخٍ لا يصنع منزلة عند الله ما لم ينعكس ذلك على سلوك الإنسان ويثمر التزامًا وعملاً. فتبيَّن أنَّ هذه الآية الكريمة تُعدّ أيضًا قاعدةً في نقض الامتياز الوراثي؛ لأنَّ الذي لا يحمل الكتاب بحقّ لا يملك الحقَّ في أن يحتجّ بالكتاب على الناس، بل يصبح الكتاب حجَّةً عليه.[٢]

ومن هنا، يظهر أنَّ الاصطفاء في القرآن ـ حتى عندما يذكر بوصفه تفضيلاً تاريخيًّا ـ لا يتحوّل إلى شرعيَّة احتكار، ولا إلى تفوّق عرقي، ولا إلى ضمان نجاة، بل هو مقام سامٍ يستقيم بالوفاء، ويَسقط بالنقض، ويُقاس بميزان التقوى والعدل، ويتحقَّق بالعمل الذي يصدّق الدعوى.

---

١ - انظر: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تفسير سورة الحجرات، آية ١٣.

٢ - انظر: محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الجمعة، آية ٥.

رأينا في هذا المحور كيف أنَّ القرآن الكريم لا ينكر وقوع الاصطفاء في تاريخ الرسالات، لكنَّه ينزع عنه كلّ طابع قوميّ مغلق، ويعيده إلى أصله الذي هو اختيارٌ للقيام بالأمانة لا استعلاء بالهويَّة؛ فالاصطفاء مرتبط بالعهد، ومشروط بالاستقامة، وقابلٌ للسقوط بالنقض، ومردودٌ في ميزان الكرامة إلى التقوى لا إلى العِرق.

ثانيًا: نقض الامتياز الديني الموروث في القرآن

بعد أن تبيّن لنا أنّ الاصطفاء في القرآن وظيفةٌ مشروطة بالعهد والابتلاء وليس امتيازًا عِرقيًا، يأتي هذا المحور ليعالج جوهر مقولة الشعب المختار في صورتها الأكثر شيوعًا، أعني صورة الامتياز الديني الموروث الذي يمنح صاحبه حقًّا حصريًا في النجاة الأخرويَّة والقرب من الله، أو يتيح له احتكار الجنَّة، أو يرفع عنه مقتضيات المساءلة والمحاسبة. وحاشى للقرآن الكريم أن يواجه هذه الفكرة وأي فكرة أخرى بخطابٍ انفعالي، بل يعالجها داخل سياق منهجي قِيمي متكامل يجمع بين: إبطال الاحتكار العقدي للخلاص، وتفنيد الأماني التي لا تستند إلى برهان، ونقل معيار النجاة من الهويَّة الموروثة إلى الإيمان والعمل والعدل، وكشف تناقض الدعوى حين تُعارَض بالسلوك والموقف من الوحي والأنبياء.

وسوف نرى في هذا المحور أنّ القرآن الكريم يصطدم مع دعوى الامتياز الموروث وفق ثلاثة مستويات:

- مستوى الادعاء الكلامي (نحن...).
- ومستوى المعيار الشرعي (قل هاتوا برهانكم).
- ومستوى الواقع الخُلُقي (نقض الميثاق، والتحريف، والعدوان).

وفي النهاية يرسّخ القرآن قاعدة كبرى، مفادها: الدين ليس علامة انتماء بل عهد عبوديَّة، وليس ثمَّة نجاة لأحدٍ بمجرد التسميات.

١-إبطال الاحتكار: النجاة ليست بالهويَّة ولا بالألقاب ولا بالأماني

من أبرز صور الامتياز الديني الموروث هو الاعتقاد بأنَّ الجنَّة حقٌّ حصري لفئة بعينها، وأنَّ الانتماء الديني الوراثي ـ مهما ساءت الأفعال والممارسات ـ كافٍ لضمان الخلاص في الآخرة. وقد دحض القرآن الكريم هذا الادِّعاء وكشف عن زيفه بأكثر من طريقة، أبرزها تفكيك الأماني وإقامة مبدأ البرهان.

يقرِّر القرآن الكريم نصًّا: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١]؛ تشير هذه الآية المباركة إلى عدَّة أمور:

أ. تسجيل الدعوى كما هي: لن يدخل الجنة إلا..

ب. وصفها للدعوى بأنها أماني، أي: محض رغبات وتهيُّؤات ذهنيَّة لا دليل عليها.

ج. الاحتكام في محل النزاع إلى معيارٍ موضوعي، وهو البرهان.

ثمَّ يقوم القرآن الكريم بعد ذلك بتقديم معيار موضوعي جامع يتجاوز الجدل الهويَّتي إلى جوهر الدين: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٢]. وبهذا جرى إعادة تعريف أهل النجاة لا بصفتهم القوميَّة أو مكانتهم الاجتماعيَّة، بل بحقيقة الاستسلام لله والإحسان؛ وبهذا نرى كيف يتحوّل مفهوم النجاة من حقٍّ وراثي إلى مسارٍ عبودي مفتوح لكلّ من حقق شروطه.[١]

وفي السياق نفسه، يأتي ردّ القرآن على مقولات من نوع لن تمسَّنا النار إلا أيامًا معدودة بوصفها نوعًا آخر من الامتياز الوهمي؛ ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاما مَعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠]، ثمَّ يقرِّر قاعدة المحاسبة: ﴿**بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٨١]؛ فالمعيار -إذن- ليس تقليص العذاب بالتمنّي، بل حقيقة الكسب الخُلُقي والاختيار العملي.[٢]

---

١ - انظر: إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة البقرة، آية ١١١ ـ ١١٢.

٢ - انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة البقرة، آية ٨٠ ـ ٨١.

ثمَّ يُعمّق القرآن هذا الأصل حين يجعل الحساب مرتبطًا بما يقدِّم الإنسان من عمل، لا بالصفة التي يدّعي أنَّه متلبِّس بها؛ ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣]؛ فهذه الآية ترتفع بالنزاع إلى مستوى أعلى؛ حيث لا يكتفى فقط بإبطال أماني فريق بعينه، بل يتعدَّاه إلى إبطال منطق الأماني من أصله ـ كائنًا ما كان مصدره ـ وتأسيس معيار شامل: ﴿**من يعمل سوءًا يجز به**﴾؛ هكذا يُسقِط القرآن فكرة الامتياز الموروث عبر إبطال بنيتها النفسيَّة، وهي الاتِّكاء على الوصف بدل العمل.

إنّ الغرض الذي ترمي إليه هذه الآيات الكريمات ليس نفيَ فضل الله أو رحمته، بل نفي تحويل الرحمة إلى ممتلك جماعي يحتكره قوم أو طائفة، فالقرآن يجعل الرحمة مرتبطة بالإيمان والتقوى والسعي للإحسان، بينما الامتياز الوراثي يطلب رحمة بلا شروط ولمجرّد الانتساب، وبين المنهجين فرقٌ جوهري: فالقرآن يربط النجاة بمنطق العدل والسنن، والامتياز الوراثي يطلب استثناء دائمًا من هذه السُّنن.[1]

٢-هدم دعوى القرب الخاص وبيان معيار المحاسبة

من أكثر صيغ الامتياز الديني الموروث وضوحًا: دعوى القرب الخاص من الله على نحوٍ يُشعر بالحصانة من المؤاخذة، وقد واجه القرآن ذلك مواجهةً مباشرة؛ قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**﴾ [المائدة: ١٨]، هذه الآية تُبطل الامتياز من الداخل عبر سؤال كاشف مفاده: إذا كانت العلاقة بين اليهود والنصارى، وبين الله -عزَّ وجلَّ- علاقة بنوّة ومحبَّة بالمعنى الذي يزعمون؛ فكيف يقع عليهم العذاب بالذنوب؟ ثمَّ تقرِّر الآية بعد ذلك الحقيقة الإنسانيَّة المشتركة التي على أساسها يؤاخذ الإنسان أو لا يؤاخذ ﴿**بل أنتم بشر**﴾؛ أي: أنَّكم داخل سُنن التكليف

١ - انظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، تفسير سورة النساء، آية ١٢٣.

والحساب كسائر الناس.

تأتي أهمّيَّة هذه الآية في مقامنا من حيث إنَّها تضع اليد على جوهر الامتياز الموروث الذي يتمثَّل في تحويل الدين إلى سنخ نَسَبة إلى الله ـ ولو مجازًا ـ بدل أن يبقى الدين عهد عبوديَّة؛ فالقرآن الكريم يردّ هذا التحويل إلى أصله؛ فالبشر بشر، والسُّنن واحدة: ذنبٌ فجزاء، وطاعةٌ فثواب، مع باب توبةٍ ورحمةٍ مفتوح، لكن دون حصانةٍ بذريعة الانتماء.

وفي المنطق القرآني: إنَّ قرب العبد من الله ليس ملكيَّة نسبيَّة بل قرب طاعة؛ ولذلك يكثر في القرآن الحديث عن معيار التقوى والإحسان والصدق، لا عن معيار الاسم؛ ولهذا يتكرّر التحدِّي القرآني من نوع: إن كنتم تزعمون منزلتكم فهاتوا ما يصدّقها من برهانٍ وسلوك.

ومن جهة أخرى، لا يكتفي القرآن بردّ الدعوى نظريًّا، بل يربطها بالفعل؛ فالدعوى التي تدّعي القرب الخاص ثمَّ تبرّر المعصيَّة أو العدوان، دعوى متناقضة؛ لأنَّ القرب من الله ـ في القرآن الكريم ـ يُنتج خشية وعدلاً وإحسانًا، لا استعلاءً على الخلق ولا تحلّلاً من التكليف.[1]

٣- تفكيك الامتياز الموروث عبر معيار العهد والعمل: من حمل الكتاب إلى حمل المسؤوليَّة

أشدّ ما يزعزع دعوى الامتياز الديني الموروث في القرآن هو أنَّ القرآن يفضح الفاصل بين حمل الهويَّة الدينيَّة وبين حمل حقيقتها الخُلُقيَّة؛ فليس كلّ من انتسب إلى كتابٍ فقد حمل الكتاب، وليس كلّ من حفظ نصوصًا فقد قام بحقِّها وعمل بموجبها؛ ومن هنا جاء التشبيه القرآني الصارم: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]، ودلالة الآية ههنا واضحة: فإنَّ وجود الكتاب في المجال العام أو في الذاكرة الجمعيَّة لا يعني قيام الأُمَّة بتعاليمه وتوجيهاته؛ فقوله تعالى «حُمّلوا» يعني: أُعطوا تكليفًا

١ - انظر: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تفسير سورة المائدة، آية ١٨.

ومسؤوليَّة، ثمَّ قوله: «لم يحملوها» أي: لم يلتزموا بتعاليمها. وهنا تُضرب فكرة الامتياز في مقتلها: إذا كان الكتاب ذاته قد يتحول إلى حجَّة على قومٍ لم يعملوا به، فكيف يُجعل الانتساب إليه سببًا للنجاة؟

ويأتي هذا المعنى منسجمًا تمامًا مع آيات الميثاق المشروط في بني إسرائيل: ﴿**إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ**﴾ [المائدة: ١٢]، ثمَّ ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ**﴾ [المائدة: ١٣]؛ أي: إنَّ القرب والفضل مرتبطان بالفعل: إقامة، وإيتاء، وإيمان، ونصرة للرسل... فإذا وقع النقض وقع السقوط؛ فالامتياز الموروث يريد بقاء القرب رغم النقض، أما القرآن فيقرِّر أنَّ النقض يبدّل الحال. وليس المقصود بهذا الخطاب تصفية حساب مع جماعة تاريخيَّة بقدر ما هو تأسيس قانون قرآني عام مفاده: كلّ أمة تحمل رسالة ثمّ تحوّلها إلى رمز هويَّة دون عدل وإحسان، فهي مهدَّدة بفقدان الشرف الرسالي؛ لهذا تبدو نصوص أهل الكتاب في القرآن ذات وظيفة مزدوجة: وظيفة جدليَّة في سياقها، ووظيفة تربويَّة للأُمَّة التي تؤمن بالقرآن حتى لا تقع في الداء نفسه، وهو أن تتوهّم امتيازًا لمجرَّد الانتساب.

ومن الزاوية نفسها نفهم الآيات التي تكشف الانتقائيَّة الدينيَّة؛ أعني: أخذ ما يوافق الهوى وترك ما يثقل التكليف؛ فالامتياز الموروث غالبًا ما يصنع دينًا مريحًا يتَّخذ من الرمز حصانة، ومن التاريخ ستارًا، ومن الاسم طمأنينة، ثمَّ يتعامل مع أوامر العدل والإصلاح بوصفها هامشًا، بينما القرآن الكريم يجعل الدين ميثاقًا لا زينة.

ولهذا كان نقد القرآن للأماني حاسمًا؛ لأنَّه لا يريد للدين أن يتحوَّل إلى تعويض نفسي عن العمل، أو إلى حصن اجتماعي يعفي صاحبه من المحاسبة. وكلّما ترسّخ هذا الفهم القرآني، صار واضحًا أنَّ مقولة الامتياز الديني الموروث ليست مجرَّد خطأ علمي، بل هي انقلاب في طبيعة التديّن ذاته: من عبوديَّة ومسؤوليَّة إلى هويَّة وامتياز.[1]

١ - انظر: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التنوير والتحرير، تفسير سورة الجمعة، آية٥.

إنَّ القرآن يفنّد الامتياز الديني الموروث عبر ثلاثة مداخل متكاملة: مدخل البرهان في قبال الأماني، ومدخل المحاسبة الإنسانيَّة المشتركة في قبال دعوى القرب الخاص، ومدخل العهد المشروط بالعمل في قبال الاكتفاء بالانتساب إلى الكتاب، ويعضد ذلك سُنّة الميثاق والنقض؛ وبذلك تتهاوى فكرة النجاة الحصريَّة والحقّ الوراثي في القرب، ويثبت بدلها معيار القرآن: الإيمان الصادق، والإحسان، والعدل، والوفاء بالعهد.

ثالثًا: سُنن الاستبدال في القرآن الكريم

إذا كان المحوران السابقان قد قرّرا أنَّ الاصطفاء في القرآن تكليفٌ مشروط لا امتيازٌ عِرقي، وأنَّ القرآن يهدم فكرة الاحتكار الديني الموروث عبر معيار البرهان والعمل والمحاسبة، فإنَّ السؤال المنهجي الذي يفرض نفسه الآن هو: ماذا يحدث حين تُضيِّع جماعةٌ ما العهد الذي حُمِّلته، أو تُفرِّغ الرسالة من مضمونها الخُلُقي، أو تُحوِّل الدين إلى هويَّة متعالية وأمانٍ كاذبة؟ هنا يأتي مفهوم الاستبدال بوصفه إحدى السُّنن القرآنيَّة الكبرى التي تحكم التاريخ الديني: ليس بوصفه إجراءً عشوائيًا، بل بوصفه قانونًا خُلُقيًّا مرتبطًا بالوفاء والنقض، وبالعدل والظلم، وبحمل الأمانة أو التفريط فيها. والاستبدال في القرآن ليس استبدال شعبٍ بشعب على معنى التفضيل العرقي، وإنَّما هو استبدال وظيفةٍ بوظيفة؛ أي: انتقال شرف حمل الرسالة والقيام بالقسط من جماعةٍ خانت الأمانة إلى جماعةٍ تقوم بها؛ ولذلك يظلّ الاستبدال متَّسقًا مع أصلين قرآنيين ثابتين:

- إنَّ معيار الكرامة والتفضيل هو التقوى والعمل لا النسب.
- إنَّ العهد لا يناله الظالمون.

ومن هنا، يقدّم هذا المحور الاستبدال باعتباره حراسة ربانيَّة لمعنى الدين كي لا يُحتكر ولا يُفرّغ ولا يُستعمل غطاءً للظلم والغلبة.[1]

١ - انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة محمد، آية ٣٨.

١-مفهوم الاستبدال قانونٌ خُلُقي لحفظ الرسالة من التحريف والتعطيل

يرد الاستبدال في القرآن الكريم بوصفه تهديدًا تربويًا، وبيانًا لسُّنّةٍ لا تحابي أحدًا؛ فإنْ انحرفت جماعةٌ ما عن مقتضى الإيمان والعمل، فإنَّ الله يأتي بغيرها ممن يصدق ويقوم بما تركت، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٨]؛ تُحكِم هذه الآية الفكرةَ في جملة قصيرة: فـ التولّي هو ترك واجب الدين أو الإعراض عن مقتضاه ويقابله الاستبدال، أي: إنَّ شرف القيام بالرسالة ليس ملكًا ثابتًا لجماعةٍ بعينها.

وتأتي آية أخرى في السياق نفسه لتزيد المعنى وضوحًا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...**﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فالاستبدال هنا مرتبطٌ بالارتداد بمعناه الواسع، أي: الانقلاب عن جوهر الدين، أو الانسلاخ عن قيمه، أو ترك نصرة الحق.

ثمَّ يذكر القرآن صفات القوم الذين يُؤتى بهم، ويبيّن عن أنَّها ليست صفات عرقيَّة ولا نَسَبيَّة، بل صفات إيمانيَّة خُلُقيَّة عمليَّة، ما يدلّ على أنَّ الاستبدال انتقالٌ في المنزلة بالعمل لا في المنزلة بالنسب. ولأجل أن لا تُفهم السُّنّة على أنَّها قطيعة عشوائيَّة، يربطها القرآن دائمًا بالمسؤوليَّة؛ فالذي يتولَّى أو ينقض الميثاق أو يفرّغ الدين من ممارسة العدل والإحسان، هو الذي يفتح الباب لهذه السُّنّة؛ ولذلك يُقرأ الاستبدال ضمن ثنائيَّة قرآنيَّة ثابتة: الميثاق والنقض، وقد سبق بيانها في سياق بني إسرائيل ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...**﴾ [المائدة: ١٢]، ثمَّ ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ...**﴾ [المائدة: ١٣]؛ فالنقض ليس مجرَّد خطأ فردي عابر بل هو خللٌ بنيوي في حمل الأمانة يفضي إلى سقوط آثار القرب، ويفتح الطريق أمام انتقال الوظيفة الرساليَّة لمن يقوم بها حقًّا.

ومن هنا تتَّضح الصلة الوثيقة بين تفنيد الامتياز الموروث وبين الاستبدال؛ فالامتياز الموروث يزعم أنَّ المنزلة لا تزول مهما وقع النقض، بينما الاستبدال يقرِّر أنَّ المنزلة قد تُنزع حين يُضيَّع العهد؛ لأنَّ شرف الدين لا يقبل أن يتحوَّل إلى حصانة للظلم.

٢- شروط الاستبدال ومؤشّراته حين تُترك الأمانة وتُستباح القيم

لا يقدّم القرآن الاستبدال في صورة قدرٍ غامض، بل يقدّمه في الغالب بعد التعرّض للأسباب أو في سياق التحذير من السلوكيات التي تستجلبه. وأهم هذه الأسباب ـ وفق المنطق القرآني ـ يمكن ردّها إلى ثلاثة أصول كبرى:

أ- التوليّ عن مقتضى الدين والانسحاب من واجب نصرة الحق.

لا يعني التوليّ مجرد ترك شعائر أو ضعف تدين شخصي بل يعني ـ في كثير من سياقات القرآن ـ الانسحاب من وظيفة الدين في إقامة الحق والدفاع عن العدل. ولذلك جاءت آية سورة محمَّد ﷺ مرتبطةً بالتوليّ ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا...**﴾ [محمد: ٣٨]؛ فالدين في القرآن ليس هويَّة تُعلن ثم يُعاش ضدّ قيمها، بل هو التزام عملي.

ب- الارتداد أو الانقلاب عن جوهر الدين إلى الولاءات الضيقة.

في آية المائدة ﴿**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ...**﴾ يربط القرآن الاستبدال بالارتداد، ثمَّ يصف القوم البديل بصفات تدلّ على أنَّهم يحملون الدين في السلوك العام لا في الوجدان المجرّد؛ فالارتداد قد يكون خروجًا صريحًا، وقد يكون انقلابًا عمليًّا حين يُقدَّم الهوى على الوحي، أو تُقدَّم العصبيَّة على العدل، أو تُقدَّم المصلحة على الحقّ.

ج- نقض الميثاق وتحويل الكتاب إلى رمزٍ بلا عمل

وهذا الأصل شديد الصلة بمقولة الشعب المختار؛ لأنَّ تحويل الدين إلى امتياز موروث غالبًا ما يصاحبه نقض للميثاق أو تعطيل لمقاصده الخُلُقيَّة؛ والقرآن الكريم يضرب لذلك مثلاً صارمًا في وصف من أُعطي الكتاب ثمَّ لم يقم بحقِّه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...**﴾ [الجمعة: ٥]، فإنَّ عدم الحمل هنا هو المؤشِّر المركزي على الاستبدال؛ لأنَّ وجود النص وحده لا يحفظ المنزلة، وإنَّما حفظها مرتبطٌ بحمل التكليف.

ومن المهم هنا التأكيد على أنَّ الاستبدال لا يعني أنَّ جماعة بعينها تُدان إلى الأبد، ولا يعني أنَّ جماعة أخرى تُمدح إلى الأبد، بل يعني أنَّ المنزلة الرساليَّة تتحرَّك وفق معيارٍ خُلُقي،

وهذا ما يجعل الاستبدال سُنّةً تربويَّة للأُمَّة المؤمنة أيضًا؛ فالقرآن لا يورد هذه السُّنن ليحكي تاريخ غير المسلمين فقط، بل ليضع معيارًا دائمًا يحمي الأُمَّة من الوقوع في وَهْم الامتياز، أو في مرض الأماني، أو في التعالي على سائر الناس.

ولذلك نجد أنَّ القرآن ـ وهو يخاطب المؤمنين ـ لا يكتفي بالبشارة، بل يقرنها بالتحذير من الانحراف؛ فإذا ضيّعوا واجب النصرة والعدل، فإنَّ السُّنن لا تحابيهم؛ لأنَّ الدين أكبر من الأشخاص والجماعات، ولأنَّ الله غنيّ عن العالمين.[1]

٣- ملامح القوم المُستبدَل بهم: العمل، والعدل، والرحمة، والقوَّة في الحقّ

من أجمل ما في خطاب الاستبدال القرآني أنَّه لا يكتفي بتهديد الاستبدال، بل يذكر ـ في بعض المواضع ـ صفات الذين يأتي الله بهم، ليكون الوصف معيارًا تربويًا وخُلُقيًّا. ففي آية المائدة: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤]؛ هذه الصفات تُظهر أنَّ معيار القرب ليس الهويَّة، بل مجموع أخلاق يتجسَّد في الواقع:

أ. صلة باللَّه قائمة على المحبّة المتبادلة: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾، وهي صلة تثمر طاعةً لا ادّعاء.

ب. تواضع للمؤمنين وعزَّة أمام الباطل: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾؛ أي: رحمة في الداخل وصلابة في مواجهة العدوان والباطل.

ج. قيام بالواجب العام ونصرة الحقّ: ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾، والجهاد هنا بمفهومه القرآني الواسع الذي يشمل بذل الوسع لنصرة الدين والحق، بحسب السياق والقدرة والضوابط الشرعيَّة.

١ - انظر: محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة محمد، آية ٣٨.

د. الاستقلال الخُلُقي: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، أي: لا يؤثّر الضغط الاجتماعي المناهض على ثباتهم وإيمانهم.[1]

بهذا، يصبح الاستبدال ليس مجرّد إخبار عن قوم مجهولي الهويَّة بل هو معيار؛ فمن اتَّصف بالصفات الآنفة كان أهلاً لحمل الأمانة، ومن فقدها كان مهدَّدًا بزوال المنزلة الرساليَّة، مهما انتسب، ومهما ادّعى.

وهنا نعود إلى الأصل القرآني الجامع الذي يهدم فكرة الشعب المختار من جذورها، ويقرِّر أنَّ المعيار خُلُقي إيماني، لا عِرقي ولا وراثي؛ فالقرآن يقرِّر أنَّ الكرامة بالتقوى، ويقرِّر أنَّ العهد لا يناله الظالمون، ثمَّ يضيف أنَّ الذي يتولىَّ يستبدل به غيره. فإذا جمعنا هذه المفاهيم في منظومة واحدة، ظهر أنَّ الاختيار في القرآن ليس امتيازًا ثابتًا لجماعةٍ بعينها بل هو ثمرة الوفاء بالعهد والقيام بالحقّ، وهو قابلٌ للانتقال حين تضيع الأمانة.[2]

يفضي الحديث عن سُنن الاستبدال إلى حقيقة قرآنيَّة حاسمة، وهي: إن الله -سبحانه- يحرس جوهر الدين من أن يتحوَّل إلى مِلْكٍ قومي أو حصانةٍ وراثيَّة؛ فمن نَقَضَ العهد أو تولّى عن مقتضى الرسالة أو استبدل الأماني بالعمل، فإنَّ السُّنن تمضي، فيُنزع عنه شرف القيام، ويُؤتى بغيره ممَّن يحمل الأمانة، ويُعاد تعريف القرب بوصفه فعلاً خُلُقيًّا لا نسبًا تاريخيًا.

خاتمة

يتبيّن من خلال المحاور الثلاثة أنَّ القرآن الكريم لا يتعامل مع مقولة الشعب المختار بوصفها مجرَّد دعوى تاريخيَّة تخص جماعة بعينها، بل يواجهها بوصفها انحرافًا في فهم

١ - انظر: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تفسير سورة المائدة، آية ٥٤.
٢ - انظر: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التنوير والتحرير، تفسير سورة المائدة، آية ٥٤.

الدين حين يتحوَّل من عهدٍ وتكليف إلى هويَّة وامتياز. فالقرآن يقرّ بوجود اصطفاءٍ في تاريخ الرسالات، لكنَّه يحرّره من الدلالة العِرقيَّة ويعيده إلى معناه الأصيل: اختيارٌ وظيفيٌّ مشروط يقوم على الابتلاء والوفاء بالعهد، لا على الامتياز الموروث؛ وبذلك يسقط الأساس الذي تُبنى عليه فكرة التفوّق بالدم أو النسب، ويثبت بدلَه أنَّ القرب من الله مرتبطٌ بميزان التقوى والعدل والعمل لا بميزان الألقاب والانتساب.

ثم يجيء القرآن في نقده للامتياز الديني الموروث ليهدم البنية النفسيَّة والفكريَّة التي تصنع حصانة للجماعة باسم الدين؛ فيفضح منطق الأماني الذي لا يقوم على برهان، ويقيم بدله معيارًا موضوعيًا للنجاة: الإسلام لله مع الإحسان، ويقرِّر قاعدة المحاسبة العامَّة التي لا تستثني أحدًا بمجرد الانتساب. كما يردّ دعوى القرب الخاصّ التي تُفهم على أنها صكّ نجاةٍ أو إعفاءٌ من المؤاخذة، بتقرير الحقيقة الإنسانيَّة المشتركة والخضوع لسُنن الجزاء. وهكذا يتَّضح أنَّ القرآن ينقل الدين من ملكيَّة جماعيَّة إلى مسؤوليَّة فرديَّة وجماعيَّة تُقاس بصدق الإيمان وثمار العمل.

وتكتمل الصورة بسُنن الاستبدال التي تُعدّ من أعظم ما ينسف فكرة الاحتكار الديني؛ إذ يقرِّر القرآن أنَّ شرف القيام بالرسالة ليس ثابتًا لقومٍ مهما كان ماضيهم، بل هو مقامٌ يتحرك مع الوفاء بالعهد أو نقضه، ومع النصرة للحقّ أو التولِّي عنه. ويصف القرآن القوم الذين يأتي بهم الله بصفاتٍ خُلُقيَّة عمليَّة تؤكِّد أنَّ معيار الاختيار ليس العِرق ولا التاريخ، بل صدق العبوديَّة، والرحمة بالمؤمنين، والصلابة أمام الباطل، والثبات على الحق. وبهذا يتحوّل الاستبدال إلى سُنّةٍ حافظة لمعنى الدين من التحريف والتعطيل، وتربية للأُمم كي لا تتوهَّم أنَّ امتلاك النصّ أو الانتساب إلى التاريخ يكفي لبقاء المنزلة.

وخلاصة القول: إنَّ القرآن الكريم يفنِّد مقولة الشعب المختار عبر بناءٍ معرفي وخُلُقي متكامل: اصطفاءٌ مشروط لا امتيازٌ عِرقي، ونجاةٌ بالبرهان والعمل لا بالأماني، ومنزلةٌ تُحفظ بالوفاء وتزول بالنقض وفق سُنن الاستبدال. وبذلك يحرِّر القرآن الإنسان من أوهام

التفوّق الديني الموروث، ويرسي عالميَّة الهداية، ويقيم ميزان الكرامة على التقوى والعدل والإحسان، فيكون الدين طريقًا مفتوحًا لكل من صدق مع الله، لا بابًا مغلقًا يحتكره قومٌ أو يورثونه للأجيال.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.
- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم (بالاشتراك مع: الدار الشاميَّة)، دمشق/بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، لا ط، ١٩٨٤م.
- الشيخ محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ط١، ١٤٣١ هـ.
- محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (وأكمل بقيَّة الأجزاء: محمود محمد شاكر)، دار المعارف، القاهرة، لا ط، لا ت.
- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
- السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، لا ت.